مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 15 العدد: 02 السنة 2023 ص 762 - 779

تاريخ الإرسال: 2022/02/04 تاريخ القبول: 2022/08/25
تاريخ النشر: 2023/06/03

أصول النّظريّة السّياقية في التّراث العربي

Origins of contextual theory in Arab heritage

عبد الباسط ماحي[1]، د. عبد الكريم لطفي[2]
جامعة تلمسان (الجزائر)، [1]abdelbasset.mahi@univ-tlemcen.dz
جامعة تلمسان (الجزائر)، [2]lotfi.karim13@yahoo.fr

الملخّص:

تهدف هذه الدّراسة إلى تبيان جهود علمائنا القدامى في إبراز معالم السّياق ومقتضياته ودوره في توضيح الدّلالة وتبيان مقاصد الخطاب، والتي تعدّ من الأمور المهمّة والأساسية التي تفطّن لها العلماء القدامى، على اختلاف مشاربهم من نحويين وبلاغيين ومفسّرين، ونسعى في هذا البحث إلى الوقوف على جهود القدامى الذين سجّلوا اهتمامهم بقضيّة السّياق.

الكلمات المفتاحية: السّياق، سياق النصّ، سياق الحال، النّظرية السّياقية، التّراث العربي.

Abstract:

This study aims to demonstrate our ancient scholars' effort in highlighting the features and requirements of the context and its role in clarifying the meaning and purposes of the discourse. It is a critical issue that ancient scholars of different disciplines have realized, including grammarians, rhetoricians, and interpreters. In this research, we seek to identify the efforts of

ancient scholars who have been concerned with the issue of context.

Keywords: context, text context, situational context, contextual theory, Arab heritage.

المؤلف المرسل: عبد الباسط ماحي، الإيميل: mahiabdelbasset@gmail.com

1.مقدّمة:

تعدّ النّظرية السّياقية ثمرة من الثّمرات التي أنتجتها اللّسانيات، وهي من أهمّ محاور علم الدّلالة؛ حيث جعلت منها نظرية ومنهجا متكاملا، وذلك لدورها الرّئيس في إبراز المعنى، وكشف مغاليق النصّ وإزالة الغموض واللّبس الذي يكتنفه.

ويتناول هذا البحث كلاما على السّياق عند القدماء، ولما له من الموضوعات الدّلالية المهمّة التي نالت عناية العلماء قديما، وذلك لأثره في كشف المعاني الغامضة والمبهمة وجلائها. وقد اهتمّ العلماء النّحويون والبلاغيون والمفسّرون من القدماء بالسّياق، كما تناوله المحدثون من العلماء الغربيين، حتّى صار هذا الموضوع عندهم نظرية متكاملة. فأردنا أن يكون هذا البحث مهادا نظريّا وعونا للدّارسين للسّياق، وبناء على ما سبق نطرح الإشكالية العامّة: ما ملامح النظرية السياقية في التراث العربي؟ وتندرج ضمن هذه الإشكالية مجموعة من الأسئلة وهي: ما مفهوم السّياق؟ وما هي أنواعه؟ وفيم تتجلّى فاعلية السّياق في التّراث العربي؟

وللإجابة عن الإشكاليّة نتدرج في عرض المادّة المعرفيّة بدءًا بتعريف السّياق، وذكر أهم أنواعه، تمهيدًا لاستجلاء مكامنه في التّراث العربيّ.

2. السّياق؛ مفهومه وأنواعه:

1.2 السّياق لغة:

ورد استعمال هذا المصطلح في "لسان العرب" تحت مادّة (سوق) ، إذ يقول: «لِلرَّجُلِ إذا كَانَ جَيِّدَ السِّياق لِلْحَدِيثِ: هُوَ يَسْرُدُه سرْداً، ويَهُتُّه هَتًّا، وَفُلَانٌ فِي السِّياق وَقَدْ سَاقَ يَسُوق إذا حَضَرَ رُوحَه الموتُ، مَا تَساوَقُ أَيْ مَا تتابَعُ، والمُساوَقة: المُتابعة كَأَنَّ بعضَها يَسُوقُ بَعْضًا، والسِّياق: الْمَهْرُ».[1]

نستخلص من قول "ابن منظور" أنّ مصطلح السّياق عنده يحمل عدّة معان، منها الجودة والسّبك في الكلام، ومنها تحمل حضور الإنسان الموت، ومنها ما تحمل التّتابع أي تتابع الشّيء، ومنها ما يقصد به المهر.

وممّا ذكر في "أساس البلاغة" للزّمخشري قوله: «رجل أسوق: طويل الساق، ومن المجاز: ساق الله إليه خيراً. وساق إليها المهر. وساقت الريح السحاب، وتساوقت الإبل: تتابعت، وهو يسوق الحديث أحسن سياق».[2]

نستخلص من قول "الزّمخشري" أنّ مصطلح السّياق عنده يحمل معان عدّة، منها طول ساق الرّجل، ومنها ما يسوقه الله لك من خير، ومنها ما يحمل صفة التّتابع كتتابع الإبل بعضها ببعض، ومنها ما يحمل جودة كلام الشّخص..

وقد عرف مصطلح السّياق عدّة معان حسب وروده في مختلف المعاجم وأنّ هناك اختلاف وتفاوت في كلا المعاني التي حملتها هذه اللّفظة عند المعجميين، في حين اتّفقوا على أنّها تحمل معنى تتابع الشّيء، وتحمل أيضا معنى حسن وطول ساق الإنسان، وتعني أيضا المهر، وأخيرا والذي يهمّنا في هذه الدّراسة البحثية ما يقصد بالسّياق هو أسلوب وطريقة الكلام الحسنة والجيّدة لدى الشّخص بعينه.

2.2 السّياق اصطلاحا:

جاء في "معجم المصطلحات الأدبية" لإبراهيم فتحي أنّ السّياق «بناء كامل من فقرات مترابطة، في علاقته بأيّ جزء من أجزائه أو تلك الأجزاء التي تسبق أو تتلو مباشرة فقرة أو كلمة معيّنة، ودائما ما يكون سياق مجموعة من الكلمات وثيق

التّرابط، بحيث يلقي ضوءا لا على معاني الكلمات المفردة فحسب، بل على معنى وغاية الفقرة بأكملها... وهناك فقرات في الكثير من الرّوائع تبدو بذاتها قاسية أو بذيئة، ولكنّها تصبح ذات معان مختلفة إذا أخذت في سياقها».[3]

نفهم إذا أنّ السّياق يلعب دورا كبيرا في بناء الكلمات داخل الجملة أو النصّ الأدبي، ممّا قد يغيّر دلالة الكلمة إذا وضعت في سياقها الصّحيح بدل وضعها في سياق آخر، ممّا يشعر المتلقّي بتذوّق المعاني من مكان لآخر.

كما يحدّد السّياق معنى الوحدة الكلامية على مستويات ثلاثة متميّزة في تحليل النصّ، فهو:[4]

- يحدّد أيّة جملة تمّ نطقها.
- يخبرنا عادة أيّة قضيّة تمّ التّعبير عنها.
- يساعدنا على القول أنّ القضيّة تحت الدّرس قد تمّ التّعبير عنها بموجب نوع معيّن من القوّة اللّاكلامية دون غيره.

إذن السّياق في هذه الحالات الثّلاث مبنيّ على الجملة والقضيّة التي تناولتها في سياق ما، ثمّ أنّ هذه القضيّة تحت الدّرس، بموجب الأداء الكلامي القوي لها.

ونجد الباحث "ستيفان أولمان" يتعرّض لمصطلح السّياق بقوله: «contaxt قد استعملت حديثا في عدّة معان مختلفة، والمعنى الوحيد الذي يهمّ مشكلتنا في الحقيقة في معناها التّقليدي، أي: النّظم اللّفظي للكلمة وموقعها من ذلك النّظم، بأوسع معاني هذه العبارة، إنّ السّياق على هذا التّفسير ينبغي أن يشمل –لا الكلمات والجمل الحقيقية السّابقة واللّاحقة فقط–، بل والقطعة كلّها والكتاب كلّه، كما ينبغي أن يشمل –بوجه من الوجوه– كل ما يتّصل بالكلمة من ظروف وملابسات والعناصر غير اللّغوية المتعلّقة بالمقام الذي تنطق فيه الكلمة لها هي الأخرى أهميتها البالغة في هذا الشّأن».[5]

نفهم من قول الباحث موقع الكلمة ودلالتها داخل النّظم تشكّل أهمية بالغة في تحديد المعنى، لا عن طريق الكلمات والجمل سابقة كانت أو لاحقة، ولكنّها تهتمّ بالنّسيج القطعي ككل، من أجل إعطاء النصّ لمسة بيانية خاصّة داخل التّركيب اللّفظي، أي هذه الكلمة لها علاقة بمقتضى المقام الذي توضع فيه.

كما أنّ الأسلوبيين يفرّقون بين مصطلح السّياق على أنّهم اثنين:[6]

- **السّياق الأصغر**: الذي يدلّ على الجوار المباشر للّفظ قبله وبعده، أي هذا النّوع يهتم بجوار الكلمة مع أختها حتّى تشكل دلالة معيّنة، تفهم مباشرة عند التّلفّظ بها.
- **السّياق الأكبر**: الذي يتنزّل فيه اللّفظ بعد الجوار المباشر كالجملة أو الفقرة أو الخطاب جملة، أي هذا النّوع يتعلّق بالمخزون الثّقافي والاجتماعي الذي يحضره القارئ وهو يتلقى النصّ.

تعرّض "الجاحظ" لمصطلح السّياق وأنّه تدور فيه المعاني على ستّة مقوّمات وهي: اللّفظ والإشارة والحركة التي تدلّ على العدد والخطّ والنّصبة والصّوت، وذلك مبيّنا في قوله: «جميع أصناف الدّلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد، أوّلها اللّفظ، ثمّ الإشارة، ثمّ العقد، ثمّ الخطّ، ثمّ الحال التي تسمّى النّصبة، والنّصبة هي الحال الدّالّة، التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقصر عن تلك الدّلالات، ولكلّ واحد من هذه الخمسة صورة».[7]

إذا السّياق عند "الجاحظ" يدور حول معان ستّة، ولابدّ لهذه المقوّمات أن تكون حاضرة معا وإلّا لما صار خطابا ذا دلالة ومعنى، يستقيم في الذّهن ويفهمه المتلقّي بشكل سلس.

نجد أيضا "ابن جنّي" يكشف لنا معنى آخر ضمني للسّياق في الكلام، وأنّه توافق معنى الكلمة مع معاني الكلمات الأخرى في التّركيب الذي وردت فيه هذه الكلمة... ولعلّ إشارة "ابن جنّي" تكشف لنا عمّا يأتي:[8]

- كما يكون السّياق في التّراكيب يكون في الكلمة المفردة بين أجزاء التّركيب.
- يضاف إلى معنى السّياق: التّأثير الجمالي للكلمات داخل التّركيب، والارتباط النّفسي الذي يتمثّل في حال المتكلّم وانفعالاته أثناء إلقاء حديث معا، والتّوافق بين معاني داخل التّركيب، والمتمثّل في فهم دلالة ما للّفظ ما بين ألفاظ التّركيب.

إذا "ابن جنّي" جعل السّياق بأنّه توافق الكلمة مع الكلمة الأخرى داخل التّركيب، وأنّ للسّياق تأثير جمالي للكلمة داخل النصّ، وأنّ هذه الكلمة لها ارتباط نفسي في وقع المتكلّم أثناء إلقائه لها، بحيث يجب على الملقي أن يركّز كلّ التّركيز حتّى يحافظ على دلالة الكلمة داخل سياق النصّ، وإلّا لما وقعت في ذهن المتلقّي بسلاسة وجمالية.

3. أنواع السّياق:

قسّم العلماء السّياق إلى أنواع؛ حيث نجد المحدثين كان تقسيمهم عامّا، بينما العرب القدامى كان تقسيمهم حسب أهل العلم من نحّاة وبلاغيين ومفسّرين، ومن بين هذه الأنواع، نجد:

1.3 السّياق النصّي:

اختصّ هذا النّوع بحدّ الجملة في تحليل النّصوص اللّغوية ؛ حيث «قدّم نحو النصّ وتحليل الخطاب بعض الآليات لتحليل الوحدات اللّغوية الكبرى مثل العبارة، أجزاء الخطاب في المحادثات، المحاورة، وكذلك النّماذج الحجاجية في بعض نماذج الخطاب، مثل الخطاب السّياسي»[9]، بمعنى أنّ النّحويين اعتبروا الجمل والعبارة

العنصر الأساسي في التّحليل الدّلالي، واعتبر بناء النصّ نظام أساسيّ في النّحو الذي يمكّن المرسل إليه من اكتشاف الوحدات وصبر أغوار النصّ للكشف عن معانيه...

2.3 السّياق الوجودي:

هذا النّوع نجده عند المناطقة والفلاسفة بشكل كبير، وهذا ما يوضّحه الباحث في قوله أنّ التّتابعات اللّغوية أو السّيميائية تكتسب معانيها من خلال علاقاتها بمراجعها، ومنه يتضمّن هذا النّوع من السّياق عالم الأشياء والأحداث، وكذلك الموقع الزّماني والمكاني هي مؤشّرات للسّياق الوجودي، بما يكفل وصف التّعبيرات اللّغوية بين المرسل والمرسل إليه.[10]

3.3 السّياق المقامي:

يندرج هذا النّوع من السّياق ضمن العالم الحقيقي الذي يعيشه الإنسان والمتضمّن البيئة المكانية التي يستقرّ فيها نحو مؤسّسة (المحكمة أو المدرسة) أو في أماكن التّسوّق (السّوق) والأكل (المطعم)، وهو عامل من العوامل التي تساعد في تحديد معاني التّعبيرات اللّغوية، من خلالها تجعل اللّغة وسيط بين الملقي والمتلقّي، وهذا ما يجعل النّصوص التي تدور في هذه الأمكنة تستدعي سياقا مقاميا بطبيعة الحال، ومنه تؤطّر هذه المحدّدات خصائص المحادثة بين الطّرفين.[11]

4.3 سياق الفعل:

تعتبر الأفعال اللّغوية من جزئيات السّياق المقامي، وهذا ما وضّحه "أوستين" الذي اعتبر اللّغة تعبير عن الفعل، بل هي الأفعال نفسها وهذا ما أوضحه في نظريته انطلاقا من الأفعال الإنجازية بين المرسل والمرسل إليه، وبها يتمّ السّياق التّواصلي، وأساس التّلفّظ هو الفعل.[12]

5.3 السّياق النّفسي:

يعتبر الخطاب فعل لغويّ يسعى إلى دمج الحالات النّفسية في السّياق اللّغوي، لتصبح المقاصد والحالات الذّهنية نقطة اهتمام الوصف والتّفسير التّداولي، الذي يعتبر اللّغة أساس السّياق النّفسي في الوصول إلى استراتيجية الخطاب بين المرسل والمرسل إليه، وأبرز مثال على ذلك خطاب الولد مع والده أو العكس، أو بين المعلّم والتّلميذ.[13]

وهذه الأنواع كلّها حسب تقسيم الباحث "بريت" وهذا ما سنوضّحه في هذا المخطّط البسيط:

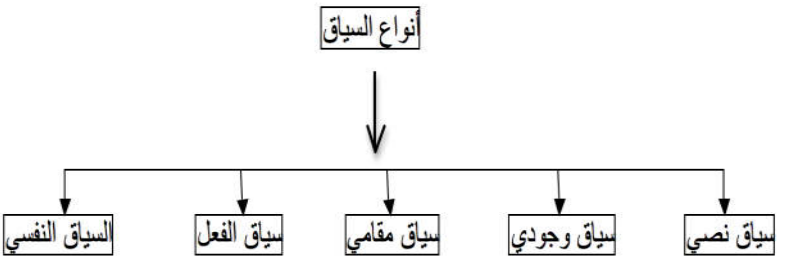

كما نجد تقسيما آخر للسّياق باعتباره لغويّا وغير لغويّ، فاللّغوي هو «الذي لا ينظر إلى الكلمات كوحدات منعزلة، فالكلمة يتحدّد معناها بعلاقاتها مع الكلمات الأخرى، إضافة إلى أنّه يوضّح كثيرا من العلاقات الدّلالية عندما يستخدم مقياسا لوزن التّرادف والاشتراك والعموم والخصوص وغير ذلك»[14]، وغير اللّغوي أو ما يطلق عليه بسياق الموقف والذي يتكوّن بطبيعة الحال من ثلاثة عناصر، وهي: «(شخصية المتكلّم أو السّامع ومن يشهد الكلام، أو دور المشاهد في المراقبة أو المشاركة)، (العوامل أو الأوضاع الاجتماعية والثّقافية المحيطة بالحدث اللّغوي)، (أثر الحدث اللّغوي في المشتركين كالإقناع أو الفرح أو الألم أو العزاء».[15]

وخلاصة القول، نلمس للسّياق عدّة تقسيمات باختلاف مجال البحث والدّراسة، وهذا ما يبيّنه المخطّط التّالي:[16]

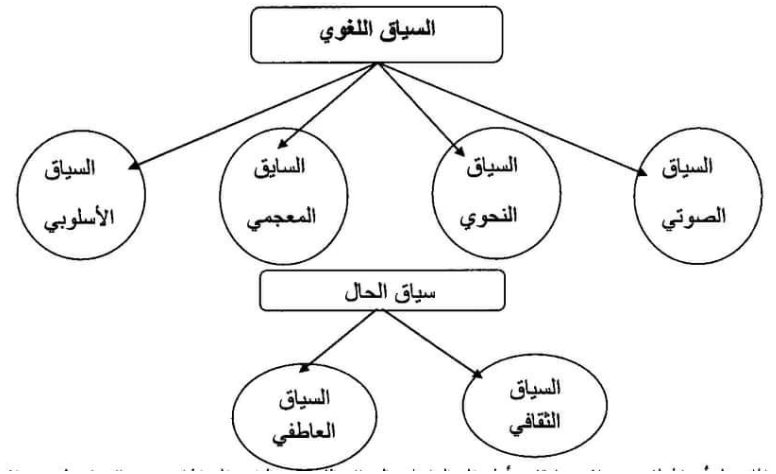

4. أصول النّظرية السّياقية:

1.4 أصولها عند النّحويين:

لم يخصّص "سيبويه" بابا مستقلّا للدّرس السّياقي في كتابه ولم يرد في فهارس مسائل النّحو والصّرف، لكن تناوله بنوعيه اللّغوي وغير اللّغوي في الارتقاء بالمعنى وتوضيحه من خلال تعانق صحّة المعنى مع تحديد زمن الكلام؛ حيث أكّد على التّركيب المجاز هو المحدّد بطبيعة الحال بزمان ومكان مع استقامة المعنى، وفي ذلك قوله: «فأمّا المستقيم الحسن فقولك: أتيتك أمس، وسآتيك غدا وإذا حدث تناقض بين أوّل الكلام وآخره عن طريق نقض الواقع صار محالا لا واقعا»؛ حيث يبيّن القصد والإدراك عند عملية التّبليغ بين المرسل والمرسل إليه، بمعنى لا يصحّ إطلاق كلام من المخاطب ويريد بها شيئا آخر مخفية على المستمع.[17]

كما نجد العالم ذاته يهتمّ بالمكوّن التّركيبي وأنّ له علاقة بالسّياق؛ حيث هو كلّ العناصر التي تنتظم ويسلم بعضها إلى بعض في رصف الجملة لكلّ عناصرها،

ابتداء من الحرف وضبطه، ومرورا بالكلمة وهيأتها، وانتهاء بأخذها الموقع المناسب في تركيب الجملة، بمعنى أنّ لديه علاقة بالمعنى والدّلالة من خلال مكوّناته الدّاخلية (الحرف، الكلمة، الجملة) وهذا يشمل باب اللّفظ للمعاني.[18]

كما نسلّط الضّوء أيضا على جهوده المبذولة فيما يتعلّق بالسّياق اللّغوي وسياق الحال، من خلال مؤلّفه "الكتاب"؛ حيث نجد في السّياق اللّغوي مصطلح التّقديم والتّأخير، ومنه التّقديم عنده على ضربين «ضروري يكون المقدّم فيه على نيّة التّأخير، وذلك إذا أبقيت المقدّم على حكمه الإعرابي الذي كان عليه قبل التّقديم، كتقديم المفعول على الفاعل في نحو: ضرب عمرًا زيدٌ، وتقديم الخبر على المبتدأ في نحو: منطلقٌ زيدٌ، وضرب آخر لا يكون على نيّة التّأخير، وإنّما ينتقل المقدّم من حكم إلى حكم ومن باب إلى آخر، ومثال ذلك قولك: هذا قائمًا رجلٌ، ومن ثمّ يقبح أيضا أن نقول: قائمٌ زيدٌ، إذا لم تجعل الخبر (وهو قائم) على نيّة التّأخير، لأنّ حدّ الجملة الإسمية أن يتقدّم ما هو بالابتداء أولى».[19]

نجد مصطلحا آخر وهو الحذف والإضمار؛ حيث أشار إليه "سيبويه" بوجود دليل من سياق النصّ المذكور وهو «إمّا أن يكون مذكورا في جملة سابقة أو لاحقة يفسّر المحذوف ويدلّ عليه، ومن ذلك قوله: وممّا ينصب أيضا على إضمار الفعل المستعمل إظهاره، قول العرب: حدّث فلانٌ بكذا وكذا، فتقول: صادق والله، أو أنشدك شعرا، فتقول: صادق والله؛ أي قاله صادقا؛ لأنّك إذا أنشدك فكأنّه قد قال كذا»[20]، ومنه نلاحظ أنّ الفعل المحذوف داخل سياق النصّ المذكور هو (قاله).

نجد العالم اللّغوي "ابن جنّي" أحد أقطاب المعتزلة يشير إلى ضرورة حضور عين الشّخص ومخاطبته حتّى يتسنّى تبليغه وتوجيهه، إذ تعتبر الرّؤيا في عين المخاطب أقوى وسيلة للإقناع بدل السّماع فقط، ممّا ينجرّ عن مخاطبة الشّخص سماعا فقط، عدم التّركيز والتّنبيه في وصول الرّسالة الإبلاغية الموجّهة إليه، وهذا ما

خصّصه الباحث في فصل من كتابه "الخصائص"؛ حيث نجده يعبّر بقوله: «اللّغة الطّبيعية المتداولة بين النّاس، والتي يتواصل بها لا تكفي لوحدها في تبليغ المراد، بل يحتاج المتكلّم بها إلى أمور منها حضور مخاطبه، ورؤيته له، إذ انكشافه ليس يستوي واختفاءه عنه أو تكليمه له في الظّلمة»[21]، وهذا إن دلّ على شيء، فإنّما يدلّ على طبيعة المقام الموجود فيه المتخاطبين وأهميته في تشكيل النصّ.

كما نجد العالم "ابن هشام الأنصاري" ينحو منحى "ابن جنّي" في ضرورة ذكر المقام وعلاقته بالعملية التّخاطبية داخل سياق هذا المقام؛ حيث عدّ المعنى عنصرا هامّا والتي يجب أن يدركها النّحوي في توجيهه، من ذلك نجده يقول: «أنّ نحويّا من كبار طلبة الجزولي سئل عن إعراب (كلالة) من قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ**﴾ [سورة النّساء، الآية 12]، فقال أخبروني ما الكلالة، فقالوا: الورثة إذا لم يكن فيهم أب فما علا ولا ابن فما سفل، فقال: فهي إذن تمييز، وقد خطأ ابن هشام هذا التّخريج، إذ يقول: والصّواب في الآية أنّ (كلالة) بتقدير مضاف، أي ذا كلالة وهو إمّا حال من ضمير (يورث) فكان ناقصة و يورث خبر، أو تامّة فيورث صفة، وإمّا خبر فيورث صفة، ومن فسّر الكلالة بالميّت الذي لم يترك ولدًا ولا والدًا فهي أيضا حال أو خبر، ولكن لا يحتاج إلى تقدير مضاف، ومن فسّرها بالقرابة فهي مفعول لأجله»[22]، ومنه نلاحظ أنّ "ابن هشام" قد اعتنى بالمقام في هذا المثال، على الرّغم من معرفته أصل اللّفظ ومعناه.

2.4 أصولها عند البلاغيين:

ظهر إدراك البلاغيين للسّياق في اشتراط مطابقة الكلام لمقتضى الحال وفق المقولة الشّهيرة التي تقول: "لكلّ مقام مقال"، حيث لا يقتصر المعنى على السّياق اللّغوي (المقال) ، بل يتجاوزه إلى سياق الحال (المقام) ؛ حيث بلاغة الكلمة تتحقّق وفق مراعاة المقام الموضوع فيها، مع مراعاة المتكلّم لسامعه أثناء عملية الخطاب.[23]

كما نلمس تعليق الدّكتور "هادي نهر" على منهج "القاضي الجرجاني" في مسألة السّياق، وعدّه مسألتين مهمّتين، تتمثّل في كون:[24]

- **الأولى:** أنّ سلامة اللّفظ تتبع سلامة الطّبع، والسّلامة المقصودة عند الجرجاني لا تتمثّل في السّلامة اللّغوية النّابعة من بيئة اللّغة، وإنّما باتّفاق العبارة أو الجملة مع الموقف النّفسي.
- **الثّانية:** تمييز صاحب الرّسالة ومنشؤها بخصائص في ألفاظه ولهجته، ممّا يؤكّد أهمية الجانب الصّوتي في صياغة الرّسالة اللّغوية وما يحيط بها من ظروف تتمثّل في الموقف أو المقام.

«بدأ اهتمام البلاغيين بالسّياق من خلال تفريقهم بين معاني الكلمات مجرّدة وبين معانيها في داخل سياق معيّن، فلا توجد كلمة لا تحمل أكثر من معنى خارج السّياق، ثمّ إنّ الفضل والمزية لا يكون لها وهي مفردة مجرّدة عن سياقها، قال الجرجاني في هذا الصّدد: "فليس من فضل ومزيّة إلّا بحسب الموضع، وبحسب المعنى الذي ترد فيه والغرض الذي تؤمّ، إنّما سبيل هذه المعاني سبيل الأصباغ التي تعمل منها الصّور والنّقوش»[25]، ومنه فالجرجاني يفرّق بين اللّفظة داخل السّياق وبين اللّفظة وهي غير مستعملة، فحتما يوجد فرق جوهري، حيث داخل النصّ تزيد في اكتساب المعنى جمالا وقوّة.

«كما نجد اهتمام البلاغيين بترابط الكلام ووضع الكلمة في سياقها الصّحيح متقدّمة كانت أم متأخّرة، جعلهم يميّزون بين نوعين من التّقديم والتّأخير، نوع فنيّ جمالي، يلجأ إليه المتكلّم لتحسين أسلوب كلامه وإعطائه إيقاعا معيّنا»[26]، وهذا ما يجعلنا نفرّق بين اللّفظة وأختها داخل جملة معيّنة فـ «شتّان ما بين دلالة: اندلعت الحربُ، والحربُ اندلعت، واندلعت حربٌ، إذ نسند في بيان كلّ تركيب من هذه التّراكيب إلى الكيفية التي يتمّ بها ترتيب مكوّنات كلّ منها أفقيّا، وموقع كلّ كلمة

داخل هذا التّرتيب من حيث التّقديم أو التّأخير أو التّعريف والتّنكير... وكل فصل بين النّحو والدّلالة تفريغ للنّحو من أبرز غاياته وأهدافه ونعني بها الدّلالة، فالألفاظ وإن وضعت لتسمية الأشياء في العالم الخارجي لكنّها لا تقف تعيين ما هو ملحوظ بذاته، وإنّما تعدّت ذلك إلى تحريك الصّور الذّهنية الكامنة في النّفوس، وهذا لا يتمّ إلّا على وفق ترتيب خاص، ونسق محدّد، يمنح الألفاظ الحركة والإيقاع والإيحاء مثلما يمنحها الدّلالة المرادة»[27]، فالباحث يؤكّد اختلاف اللّفظة الواحدة داخل عدّة سياقات منوّعة، وهذا ما يطلق عليه باسم أسلوب التّقديم والتّأخير داخل علم المعاني، فاستخدام هذا الأسلوب ضمن السّياق يجعل العبارة رصينة ومتينة وتكتسب قوّة وصلابة داخل المتلقّي.

إذن، فنظرة البلاغيين للكلام البليغ نظرة مزدوجة، فيجب النّظر إلى صياغة الجملة ثمّ ملاحظتها إن كانت مطابقة للموقف التي تنشأ فيه، وهذا ما يطلق عليه بسياق الموقف، فاقتصرت نظرتهم على المعيارية دون الوصفية، في حين نجد المحدثين لم يشترطوا فصاحة الكلام من عدمه، فدرسوا مستويات مختلفة من التّركيب كاللّغة البدائية مثلا عند لغة جزر (تروبياند).[28]

3.4 أصولها عند المفسّرين:

«اهتمّ علماء التّفسير بالسّياق بصنفيه اللّغوي وغير اللّغوي ، واعتبروه من أهمّ القرائن في بيان مقاصد آي الذّكر الحكيم، فالتّفسير لديهم يقوم على كشف معاني القرآن، وبيان المراد منه، سواء أكانت معان لغوية أم شرعية، بالوضع أو بقرائن الأحوال ومعونة المقام».[29]

«كما اتّجه عدد من دارسي القرآن نحو سياق الموقف، فبيّنوا المقصود منه وإن لم ينصّوا على تسميته بهذا المصطلح، وإنّما ذكروا مصطلحات مختلفة للدّلالة عليها، ومنها مصطلح قرائن الحال التي ذكرها "أبو حامل الغزالي" في معرض ردّه على من

اعترض على هذه القرائن، فالقرائن عنده لفظية وغير لفظية، وكلّ قسم من هذين القسمين مستقلّ عن الآخر، نحو قصد المتكلّم إذا قال السّلام عليكم، أنّه يريد التحية أو الاستهزاء واللّهو، فقسّم القرائن غير اللّفظية المتحكّمة في توجيه معنى السّياق على:

- الإشارات والحركات التي يقدّمها منشئ الرّسالة.
- عادات المنشئ وسلوكه.
- قصد المنشئ.
- عناصر أخرى ليس لها مسمّى عنده ومثّل لها بالقرائن التي يعلم بها خجل الخجل ووجل الوجل وجبن الجبان...».[30]

إذن حسب "أبو حامد الغزالي" القرائن عنده نوعين، لفظية وغير لفظية، والأخيرة هي التي يعني بها ملامح المتكلّم في أدائه للرّسالة الموجّهة للطّرف الآخر، وهذه الملامح عبارة عن حركات وإشارات ورموز تنبعث منه، بها يقصد المتكلّم وجهة نظره التي سيصل إليها كنبرة إلقاء التحية للطّرف الآخر مثلا.

كما نلاحظ أيضا "الشّاطبي" قد استعمل لفظة (المساق) «للتّعبير عن وحدة النصّ وعلى ضرورة مراعاة أوّل الكلام وآخره وإن كلّ من أراد أن يفهم نصّا ما، فعليه ألّا يقتطعه من سياقه الذي ورد فيه»[31]، ومنه يجب على السّامع المنصت للنصّ الدّيني النّظر في أوّل الكلام وآخره، حتّى يتسنّى استنباط الأحكام الواردة فيه، وإلّا ضاع منه تحصيل كثير.

و «للمفسّرين في البحث عن المراد أو المعنى في القرآن الكريم طريقان هما نوعا التّفسير، وهما التّفسير بالمأثور، والتّفسير بالرّأي... فأمّا التّفسير بالمأثور فمعتمده القرآن والسنة وأقوال الصّحابة»[32]، ومنه نفهم أنّ هذه الطّرق الثّلاثة للتّفسير بالمأثور «تعتمد في معظمها على السّياق بنوعيه، فهي تعتمد استقراء النّصوص

(سياق القرآن) فإنّه يفسّر بعضه بعضا، أو السنة وهي إن لم تكن فعلا أو تقريرا فلاشكّ هي قول أي نص، ففي هذين الطّريقين تناول للقرآن الكريم بالنّصوص منه ومن السنة، وهذا سياق النصّ، يقول الشّنقيطي: واعلم أنّ السنة كلّها تندرج في آية واحدة من بحره الزّاخر (يعني القرآن) وهي قوله تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**﴾ [سورة الحشر، الآية 07]، وممّا فسّر بالقرآن ما فسّر به الرّسول صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: ﴿**وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ**﴾ [سورة الأنعام، الآية 82]، لمّا نزلت سأل الصّحابة فقالوا: أيّنا لم يظلم نفسه؟! ففسّره النّبي صلى الله عليه وسلم بالشّرك، واستدلّ عليه بقوله: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ [سورة لقمان، الآية 13]».[33]

أمّا الطّريقة الثّالثة المعتمدة في «سياق الموقف فتبدو في أقوال الصّحابة في التّفسير، لأنّهم شاهدوا القرائن والأحوال، وهذه القرائن والأحوال تتمثّل أوّلا في أسباب النّزول، فكثير من الآيات ارتبطت بمواقف وأحوال اقتضت نزولها، وليس هنا مجال لسرد كلّ أسباب النّزول وإنّما الإشارة إلى أهميتها عند المفسّرين، باعتبارها معينا على فهم المراد من الآية».[34]

5. خاتمة:

وخلاصة القول نصل إلى مجموعة من النّتائج مفادها:

- تميّز العرب القدماء بدراستهم واهتمامهم بالسّياق، لما له من أثر كبير في توضيح الدّلالية وتبيان مقاصد الخطاب.
- تعدّ النّظرية السّياقية من أهمّ نظريات البحث في التّراث العربي قديما وحديثا.
- شغل السّياق دورا هامّا في التّراث العربي؛ حيث استحواذ دوره في تحديد المعنى.
- أسهم النّحويون إسهاما معتبرا في دراسة السّياق ومعالجة النّظرية السّياقية في زوايا عدّة في ضوء الدّراسات النّحوية.

➢ لقد أولى البلاغيون أهمية كبيرة للسّياق، لما له من ارتباط وثيق بماهية البلاغة.

➢ تجلّيات السّياق عند المفسّرين واعتمادهم في دراسة النصّ القرآني على السّياق اللّغوي.

6. المراجع:

[1]– ينظر: ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط 3، 1414هـ، (103/2) و (321/6) و (166/10)، مادّة (سوق).

[2]– ينظر: الزّمخشري، أساس البلاغة، تح: محمّد باسل عيون السّود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1419هـ/1998م، ج 1، ص 484، مادّة (سوق).

[3]– إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، التّعاضدية العمّالية للطّباعة والنّشر، صفاقس، تونس، د ط، 1986م، ص 201–202.

[4]– جون لاينز، اللّغة والمعنى والسّياق، تر: عبّاس صادق الوهّاب، مراجعة: يوئيل عزيز، دار الشّؤون الثّقافية العامّة، بغداد، العراق، ط 1، 1987م، ص 222.

[5]– ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللّغة، تر: كمال محمد بشر، مكتبة الشّباب، د ط، د ت، ص 57.

[6]– عبد السّلام المسدّي، الأسلوبية والأسلوب، الدّار العربية للكتاب، ط 3، د ت، ص 175.

[7]– أبو تمّام أحمد ميرغنى عيسوى، السّياق اللّغوي في القصص القرآني دراسة في علم اللّغة نحو نظرية للسّياق والسّياق اللّغوي بين الدّلالة الأدبية واللّغوية والقرآنية، دار العالم العربي، القاهرة، ط 1، 1436هـ/2015م، ص 18.

[8]– ينظر: المرجع نفسه، ص 19–20.

[9]– عبد الهادي بن ظافر الشّهري، استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، ط 1، 2004م، ص 42.

[10]– ينظر: المرجع نفسه، ص 42.

[11]– ينظر: المرجع نفسه، ص 43.

[12]– ينظر: المرجع نفسه، ص 43–44.

[13]– ينظر: المرجع نفسه، ص 44.

[14]– آسية متلف، آلية السّياق ودورها في تحليل الخطاب الأدبي، مجلّة التّعليمية، المجلّد 5، العدد 16، ديسمبر 2018، ص 155.

[15]– المرجع نفسه، ص 155.

[16]– المرجع نفسه، ص 156.

[17]– ينظر: ناريمان براح، النّظرية السّياقية في الدّرس اللّساني قديما وحديثا (دراسة مقارنة)، مذكّرة ماستر، تخصّص: اللسانيات، قسم علوم اللّغة العربية، كلية الآداب واللّغات، جامعة أم البواقي، الجزائر، 2014–2015، ص 54–55.

[18]– ينظر: المرجع نفسه، ص 55.

[19]– نعيمة بن ترابو، ملامح النّظرية السّياقية عند اللّغويين العرب –دراسة من منظور لساني–، رسالة ماجيستير، تخصّص: علوم اللّسان العربي، قسم الأدب العربي، كلية الآداب واللّغات، جامعة بسكرة، الجزائر، 2009–2010، ص 43.

[20]– المرجع نفسه، ص 44.

[21]– المرجع نفسه، ص 49–50.

[22]– المرجع نفسه، ص 54–55.

[23]– ينظر: أثر السّياق في ترجيح دلالة النصّ لدى الزّمخشري "الكشّاف أنموذجا"، رسالة ماجيستير، تخصّص: اللّسانيات النصية، كلية الآداب واللّغات والفنون، جامعة وهران 1، الجزائر، 2017م/2018م، ص 39.

[24]– المرجع نفسه، ص 42، نقلا عن: هادي نهر، علم الدّلالة التّطبيقي في التّراث العربي، دار الأمل للنّشر والتّوزيع، إربد، الأردن، ط 1، 1427هـ/2007م، ص 281.

[25]– عرفات فيصل المنّاع، السّياق والمعنى دراسة في أساليب النّحو العربي، منشورات الاختلاف (الجزائر)، منشورات ضفاف (لبنان)، ط 1، 2013م، ص 61.

[26]– المرجع نفسه، ص 63.

[27]– هادي نهر، علم الدّلالة التّطبيقي في التّراث العربي، تقديم: علي الحمد، دار الأمل للنّشر والتّوزيع، إربد، الأردن، ط 1، 1427هـ/2007م، ص 215.

[28]– ينظر: السّياق والمعنى دراسة في أساليب النّحو العربي، عرفات فيصل المنّاع، ص 69–70.

[29]– سامية بن يامنة، سياق الحال في الفعل الكلامي (مقاربة تداولية) ، أطروحة دكتوراه، تخصّص: اللّسانيات التّداولية، قسم اللّغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللّغات والفنون، جامعة وهران 1، الجزائر، 2011م/2012م، ص 36.

[30]– عرفات فيصل المنّاع، السّياق والمعنى دراسة في أساليب النّحو العربي، ص 70–71.

[31]– المرجع نفسه، ص 73.

[32]– ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطّلحي، دلالة السّياق، معهد البحوث العلمية، مكّة المكرّمة، جامعة أمّ القرى، المملكة العربية السّعودية، ط 1، 1424هـ، ص 105–

[33]– المرجع نفسه، ص 106

[34]– المرجع نفسه، ص 106– 107.